الفنان عدنان شرارة ودّعنا بالرمادي قبل أن تسقط الجريدة من يده

رحل الفنان عدنان شرارة، وبقي لبنان رمادياً كما حاول أن يصوره في معرضه الأخير، الذي أقامه منذ خمس سنوات في «غاليري زمان»، بل ترك المستقبل رمادياً خلفه. الصحف نفسها التي رسمها بالرمادي حينها، حملت اليوم خبر رحيله وصورته. دخل في الرمادي، في ذلك الغيم الذي لا يمطر، في فضاء تشكيلي من نوع آخر، لم تصوّر ريشته مثله. إنه الخريف الذي حمله الرمادي إلينا، خريف العمر الذي كثيراً ما كان يرعبه، عندما ينظر إلى نفسه في مرآة الشباب.

صدقت نبوءته، فانبرت الصور في معرضه الأخير حتى غامت. قلّب الجريدة. قرأها في كل الاتجاهات، ورماها ليشرب فنجان قهوة الصباح، قبل أن يرميها ويرمي ألوانه وكؤوس فرحه وهمومه كلها.. ويستريح.

لم يكن متشائماً في طلته وجلسته وحديثه، فمهابته ووسامته تضيئهما البسمة، لكنه يحمل غضباً محبباً في داخله، وقد أحْنَتْ قامته الانكسارات. كانت البسمة تحاور على وجهه تنهيدة الحزن والشيخوخة. صاحب شباب فوّار وصاخب، إلا أن شيخوخته كانت مستكينة، والرمادي ينتشر في لوحته، حتى لا يسود الأسود أو الأبيض. مسالم، لأنه ربما لم يجد في الانحياز بطولة. استعانته بالصحف مادة لأعمال معرضه الأخير، تعني أنها في طليعة معركة لا يكون الفنان في مقدمتها، وهو الصحافي العتيق، أراد ذلك بشيء من الحنين إلى أيام شبابه، حيث كان يشرف على مجلة «الطليعة» الكويتية في ستينيات القرن الماضي.

بقي عدنان شرارة يؤمن بأن الفنان لا يكون في المقدمة، فالصحيفة الصباحية تسبقه في القول والمبادرة والإشارة والتعبير، ولأنه كان مدمناً على قراءة الصحف، حملها إلى لوحته ومعرضه، وصوّرها مفتوحة ومطوية ومرخية ومشدودة، كأنه يحاكيها، ويستنطقها، ويعيد تشكيلها على طريقته. كانت الصحيفة تعنيه، بخلاف العديد من الفنانين، حتى أنه كان يهتم بدعوة الصحافيين إلى معرضه، وبما يكتبون عنه، إن سلباً أو إيجاباً.

وإذا كانت رمادية معرضه الأخير تشكل في أحد وجوهها معنى الابتعاد عن المصادمة والمشاكسة والخطاب السياسي، فهو ذهب أكثر من ذلك، في معرض سابق له، عندما رسم على مساحة معرض كامل ورقة الخبيزة، مستغرقاً في جمالياتها الطبيعية، راصداً خطوطها وأمواج الضوء فيها، ومدققاً في هندستها الفاتنة. كان حينها منحازاً إلى الفن الصافي، برغم الدلالات التي يمكن أن نفكر فيها. حتى في معرضه الأخير، «الرمادي»، كنا نراه يلجأ إلى الزخرفة الشرقية ليضفي على عالمه التشكيلي بعض الفتنة، خوفاً على المشاهد من أن يستنقع في اليأس.

عدنان شرارة الذي كان يقصدنا في الجريدة، فيصل لاهثاً تحت ثِقْل همّته واستفحال مرضه، كان ينتصر لشبابه، ويعتبر الشيخوخة تهمة لا يمكن أن يحتملها، فقد بقيت طراوة الحياة تتحرك تحت جلده، وتحت أسنانه، حتى الرمق الأخير. وهو قاوم الشيخوخة بالرسم، وعمل على تحدي صنوف الدهر بالفن، وقاتل المرض بإرادة الحياة، والواقع المرّ بالفكاهة الحلوة. لا بأس، فهو ترك جسده وسط الصراعات، مهموماً بشؤون الأمة وشجونها، بتوترها وصراعاتها، بتاريخها ومستقبلها، حتى اختلطت الأمور، وبات الخيط الفاصل رمادياً أيضاً، وبقي مخلصاً لقناعاته النضالية، لكن باسترخاء. وهكذا كان علينا، كلما تبسّم، أن نتفحّص بريق عينيه، حتى نفقه الحدود بين السخرية والفرح على شفتيه.

ودّعنا عدنان شرارة بفنه منذ خمس سنوات، عندما وضع أمامنا على الحائط أشجاراً خريفية عارية من الحياة، ومدينة تشبه أبنيتها القبور، وعندما وقّع على الصحف قبل أن تسقط من يده... ودّعنا، لكننا لا ندري كيف نلوّح له بالجريدة، أو نوقّع اسمنا على الصفحة، أو اللوحة الأخيرة، التي سقطت من يده.

أحمد بزون

(*) نعته جمعية الفنانين اللبنانيين للرسم والنحت في بيان جاء فيه: عدنان شرارة أحد كبار الفنانين التشكيليين في لبنان. هو من أوائل المتخرجين في الجامعة اللبنانية ـ معهد الفنون، وأحد أعضاء الجمعية الذين واكبوا تأسيسها.

السفير، السبت ٣ تشرين الأول ٢٠٠٩

www.khitat.com